

المدينة والحضارة في فكر ابن خلدون ومالك بن نبي

City and Civilization in the Thought of Ibn Khaldun and Malik Ibn Nabi

عبد القادر أوزقزو *

جامعة وهران 2 محمد بن أحمد/ الجزائر (abdelkader.ouzougrou@gmail.com)

تاريخ الاستلام : 2019/02/22 ؛ تاريخ القبول : 2019/06/26 ؛ تاريخ النشر : 2019 /06/ 30

Abstract

المخلص

Ibn Khaldoun is considered one of the most important philosophers of the Middle Ages. He has presented many ideas in his *The Muqaddima* (the prolegomena) that the city , according to his thought , is a social system of logical architecture that is framed in a rational legal framework. It also linked the city and the development of civilization , and considered it a symbol of the symbols of civilization , and included these ideas in the form of the general concepts , They are settlement the human and *Asabiyyah* (agnation). It was followed by the contemporary Arab thinker Malik bin Nabi , who presented many of the ideas he developed in a broad concept entitled "The Problems of Civilization". His most important ideas are the historical movement and the three worlds (the world of things , the world of people and the world of ideas). This paper was presented to refute their ideas and analyzes of the concepts of the city and civilization.

Keywords. : Ibn Khaldoun , Malik ben Nabi , The City , Civilization

يعتبر المفكر والفيلسوف العربي ابن خلدون من أحد أهم فلاسفة القرون الوسطى؛ بحيث قد قدم العديد من الأفكار في مقدمته والتي مفادها بأن المدينة حسب فكره هي نظام اجتماعي عبارة عن هندسة معمارية منطقية تصاغ تحت اطار قانوني بأسلوب عقلائي. كما قد ربط بين المدينة وتطور الحضارة، واعتبرها رمز من رموز الحضارة، وقد ضمن هذه الأفكار في شكلها العام بمفهومين أساسيين وهما العمران البشري والعصبية. كما قد اتبعه المفكر العربي المعاصر مالك بن نبي بتقديمه العديد من الأفكار المعرفية صاغها في مفهوم واسع بعنوان "مشكلات الحضارة" ومن أهم أفكاره خاصة الحركة التاريخية والعوامل الثلاث (عالم الأشياء، عالم الأشخاص، وعالم الأفكار). وقد تم تقديم هذه الورقة البحثية لدحض أفكارهم وتحليلاتهم لمفهوم المدينة والحضارة.

كلمات مفتاحية: ابن خلدون، مالك بن نبي، المدينة، الحضارة.

مقدمة:

يعتبر كلا من مفكري العرب ابن خلدون ومالك بن نبي من أهم المبدعين الفكريين في الدراسة والتحليل السوسيولوجي والفلسفي لأوضاع ومشكلات المجتمع.

فقد اشتهر مفهوم العمران البشري بصفة كبيرة وواسعة في الساحة العلمية، وقد أُستخدم في العديد من الدراسات، كما كان الفضل لابتكار هذا المفهوم وهو المفكر ابن خلدون، وهو مفهوم غزير المواضيع وذو جاذبية، فهو يحيط بأهم مشكلة سوسيولوجية ومعرفية بحيث أن هذا المفهوم (العمران) قد تضمن العديد من التصورات المرتبطة بخصائص الحياة في فترته؛ ومن أهمها التي جاءت في هذه الورقة البحثية ألا وهي مفهومي الحضارة والمدينة؛ فقد ناقشها باعتبارها أنها نتاج اجتماعي ذات أطر محددة الأبعاد وغاية مقصودة بحيث أن المجتمعات الانسانية هي التي تنظم سير نظامها وذلك اعتماد على وسائل انتاجها وأنماط حياتية وخصائص جسمية ونفسية وخلقية واتباعا لشروطها الاجتماعية... لكل نوع من العمران (البدوي والحضري)، واعتبره ظاهرة اجتماعية حتمية لأن الانسان بطبعه اجتماعي ولا بد له من وازع يسير ويكبح غرائزه الحيوانية. ودراسة الحضارة والمدينة في نشأتها وطرق، وشروط ومراعات خصائص سواء كانت بيئية أو اجتماعية.

ومن المعروف أن العلم والفكر هو علم تراكمي واستمراري فنجد ابن خلدون قد تأثر بفلاسفة القدامى (اليونان) كأفلاطون وأرسطو... الخ كما قد لحقه مالك بن نبي حتى لقب بابن خلدون القرن العشرين؛ بحيث قد ناقش بن بني العديد من العلاقات والمفاهيم مثلا الحركة التاريخية، والحضارة والعوامل والعناصر الثلاث كما سنبينه لاحقا.

إذن نطرح الاشكالية التالية: كيف درس ابن خلدون وابن نبي الحضارة والمدينة؟.

وماهي اسهاماتهما في المجال الفكري الحضاري؟ للإجابة على هذا السؤال سنتطرق إلى أهم عناصر وهي كالآتي:

1) ابن خلدون:

أ- **التعريف بابن خلدون:** اسمه الكامل هو "عبد الرحمان بن محمد بن محمد بن الحسن بن جابر بن خلدون الحضرمي، الاشبيلي السلف، التونسي".¹ وهو من مواليد مدينة تونس يوم 1 رمضان عام

¹ محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج: 2، ط: 1، 1982، ص: 211.

732هـ الموافق لسنة 1331م، وهو ينتمي من عائلة وأئل بن حجر من أقيال عرب حضر موت باليمن. وقد تربى في أحضان والده محمد، الذي أوكل أمر تعليمه إلى الشيخ أبي عبد الله محمد بن نزال الأنصاري البلسني الذي علمه القرآن الكريم... كما قد درس على والده علوم اللغة العربية وصناعة الشعر، وكذلك على الشيخ الحسايري وغيرهم من الشيوخ... وكذلك درس الفقه على يد العديد من المشايخ كما قد طالع ودرس مجموعة من الكتب... وهذا مما سمح له في التحصيل على العديد من العلوم والمعارف، وعند انتشار وباء الطاعون عام 749هـ الموافق لسنة 1348م توفي أبواه والكثير من شيوخه إلى أنه بقي وحيدا حتى استدعي من طرف الوصي على عرش تونس المدعو أبو محمد بن تافراكين إليه ومنح له وظيفة العلامة وهي الحجابة للسلطان الحفصي أبي اسحاق الصبي الصغير... وكذلك قد شارك في العديد من المعارك العربية.²

ومن بين أهم المهن التي شغلها ابن خلدون في زمنه نذكر : فقد تولى ابن خلدون الكتابة لأبي عنان إلى فاس في عام 755هـ (1354م) وذلك بضمه إلى مجلس علمائه وكتابة رساله والتوقيع بين يديه إلا أنه كان مكرها لأن حسب اعتقاده لم يكن يعهد في أسلافه أو أجداده؛ فكانت هذه الرحلة (إلى فاس) مساهمة في تشكيله الفكري والاستفادة من أعمالهم فقد درس ونظر في العدد من المعارف ووطد علاقاته واحتك بالعلماء والمشايخ بالمغرب والاندلس.³

توليه الكتابة للسلطان أبي سالم بفاس: حيث عين أبو سالم ابن خلدون ككاتب له عام شعبان 760هـ (1359م) فقد رعى ابن خلدون له جهوده لنجاحه وفوزه بالملك، ومن خلال هذا العمل قد اهتم بقول الشعر ونظمه، وانتال عليه من بحور خاصة في المناسبات الدينية.⁴

وفي فترة خلال سنة 761هـ (1360م) قد لقي واحتك بالوزير لسان الدين بن الخطيب الأندلسي في مدينة فاس مما سمح هذا اللقاء أن يشغل ابن خلدون وزيرا ومستشارا في هذه المدينة.⁵ وبعد فترة بدأ ابن خلدون يتعرض من مجموعة من التهديدات والانقلابات والتحريضات ضده؛ مما اضطر إلى الرجوع بعد هذا المشوار إلى مسقط رأسه تونس عام 763هـ (1362م) كما قد قرر

² بوعزيز يحيى، الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، ج: 2، دار البصائر، الجزائر، د ط، 2008، ص ص: 85-86

³ نفس المرجع، ص ص: 87.88

⁴ نفس المرجع، ص ص: 90

⁵ بوعزيز يحيى، مرجع سابق، ص ص: 91

بعدها السفر إلى الأندلس ووجه أسرته إلى أحوالهم أولاد القايد محمد بن الحكيم بقسنطينة عام 764هـ (1362م).⁶

ابن خلدون يعين مدرسا في الضرغطمشية عينه السلطان برفوق شيخا مدرسا للحديث التابع للمذهب المالكي في هذه المدرسة في جانفي سنة 1389م 790هـ.⁷

ولقب ابن خلدون بالعديد من الألقاب والنعوت وهي قاضي القضاة، ولي الدين، أبو زيد، عبد الرحمن، ابن الشيخ الإمام أبي عبد الله محمد، ولي الدين، ابن خلدون، الحضرمي، المالكي، المؤرخ، الفيلسوف، عالم الاجتماع ورجل السياسة وغيرها من أسماء... فقد نجد أن ابن خلدون قد لعب العديد من الأدوار والمناصب التي تولاهها ومنها الوزير، الرئيس، الحاجب، الفقيه الجليل، علامة الأمة، إمام الأئمة؛ بحيث هذه الأدوار جعلت منه أن يذهب بعيدا بأفكار وتشكيل تصورات ومفاهيم جديدة حول الحياة الاجتماعية التي عايشها.⁸

دخل غمار الحياة العامة قبل بلوغه السن 20 من عمره، وقام بمهمة سياسية خطيرة، بعدما وصل إلى عتبة 70 سنة، وبين وظيفته الأولى ومهمته الأخيرة تولي كتابة السر، وخطة المظالم، وصار وزيرا... وغيرها من الوظائف السابق ذكرها فكانت هذه الأخيرة عبارة عن سلسلة من الحوادث والمشاكل والمنافسات والخصامات؛ ولم يتمتع ابن خلدون بحياة هادئة إلا مابين سنة 1375م و1378م أي حوالي أربعة أعوام بعدما اعتزل الحياة العامة وقيامه بالعديد من الرحلات والزيارات إلى مختلف المدن خاصة المغرب العربي الكبير والأندلس. ومكث بقلعة ابن سلامة بعيدا عن المدن، إذ تعتبر هذه السنوات الأربع بمثابة أخصب سنواته من حيث نشاطه الفكري والانتاج العلمي لأنه في هذه الفترة قد قدم لنا ابن خلدون مجموعة تحليلات وتصورات ضمنها في مؤلفه سماه "مقدمة".⁹

توفي في القاهرة عام 808هـ (1406م) خلال هذه السنوات (75 سنة) كانت سنوات علمية وفكرية وعقلية.¹⁰

⁶ نفس المرجع، ص: 92-93

⁷ نفس المرجع، ص: 117

⁸ حسن الساعاتي سامية، ابن خلدون مبدعا، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط: 1، 2006، ص: 9-10

⁹ حسن الساعاتي سامية، مرجع سابق، ص: 11-12

¹⁰ نفس المرجع، ص: 11

ب- مؤلفاته¹¹:

- لباب المحصل في أصول الدين سنة 1351م وهو أول مؤلفاته.
- تقييد في المنطق.
- كتاب في الحساب.
- شرح البردة.
- شرح رجز في أصول الفقه للسان الدين بن الخطيب.
- شفاء السائل لتهديب المسائل.
- العبر في ديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم.
- المقدمة وهي أشهر كتبه ومؤلفاته وقد ترجمت في بداية القرن 18 إلى لغات متعددة.

ج- أفكاره وتحليله لمفهوم الحضارة والمدينة: قد ضمن وبين ابن خلدون العديد من الأفكار

والتصورات والمفاهيم للدلالة على مفهوم الحضارة والمدينة في مؤلفه "مقدمة"؛ والتي ناقشها وقرأها تحليلًا سوسيولوجيًا، وهو من الأوائل مفكري العرب الذين درسوا الحضارة في ستة فصول وهي: الفصل الأول: في العمران البشري على الجملة وأصنافه وقسه من الأرض، الفصل الثاني: في العمران البدوي وذكر القبائل والأمم الوحشية، والثالث: في الدول والخلافة والملك وذكر مراتب السلطانية، والرابع: في العمران الحضري والبلدان والأمصار، والخامس: في الصنائع والمعاش والكسب ووجوهه، وأخيرًا في العلوم واكتسابها وتعلمها. ومن أهم أفكاره فيما يخص موضوعنا البحثي منها:

أولاً/ مفهوم العمران: قد قصد ابن خلدون بمفهوم العمران بأنه ذلك الاجتماع الانساني بحيث قد استدل إلى العبارة التالية: «الإنسان مدني بالطبع» ؛ أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدنية في اصطلاحهم وهو معنى العمران.¹²

كما قد حدد ابن خلدون غاية وهدف هذا العمران بأنه:

للأنس بالعشير: حيث يراه بأنه الغاية الأولى للعمران وهو "التساكن والتنازل في مصر أو حلة للأنس بالعشير واقتضاء الحاجات، لما في طباعهم من التعاون على المعاش".¹³

¹¹مُجد محفوظ، مرجع سابق، ص ص: 218-222

¹²ابن خلدون عبد الرحمن، مقدمة، تحقيق: مُجد رجب، دار ابن الجوزي للطبع والنشر، القاهرة، ط: 1، 2010، ص: 35

¹³نفس المرجع، ص: 34

واعتبر أن هذا العمران ضروري للنوع الانساني،¹⁴ وجعله من الطبيعي أن ضرورة وجود سياسة وملك ينظم بها أمره.¹⁵

ثانيا/ منهج دراسة هذا العمران: "اعلم أنه لما كانت حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم، وما يعرض لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبية وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعدتهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع، وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الأحوال."¹⁶ ودعا كذلك إلى تجنب والابتعاد عن الأفكار البعيدة كل البعد عن الواقع الاجتماعي، لأنها هدفها المقصود أو غير المقصود أن تحجب الواقع والحقيقة وتوقع به في أخطاء ومغالط.¹⁷ إذ يعبر في مقدمته: "أن ننظر في الاجتماع البشري الذي هو العمران، ونميز ما يلحقه من الأحوال لذاته وبمقتضى طبعه، وما يكون عارضا لا يعتد به وما لا يمكن أن يعرض له، وإذا فعلنا ذلك كان ذلك لنا قانونا في تمييز الحق من الباطل في الأخبار والصدق من الكذب بوجه برهاني."¹⁸

فقد بين ابن خلدون الهدف الحقيقي من الدراسة التاريخ للمجتمع إذ عرفنا ويقدم لنا الحالة الاجتماعية للإنسان... وهذه الحالة تمثل بالنسبة لدية على أنها دراسة الحضارة الشاملة على كشف ومعرفة الظواهر التي تتصل بالبيئة سواء كانت بدوية أو حضرية؛ وأثرهما في طباع الناس وفي أفكارهم وعقلياتهم، ثم انتقل إلى دراسة الأسرة والقبيلة (العصبية)، وكذا دراسة عوامل السقوط والنهوض للحضارة وغيرها من المسائل التي تتعلق بمفهوم العمران.¹⁹ ويمكن تلخيص أهم النقاط التي قدمها ابن خلدون في مقدمته حول حقيقة الدراسة الاجتماعية ومنها:²⁰

¹⁴ نفس المرجع، ص: 36

¹⁵ نفس المرجع، ص: 249

¹⁶ نفس المرجع، ص: 29

¹⁷ مغربي عبد الغني، الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون، تر: محمد شريف بن دالي حسين، ديوان مطبوعات الجامعة، الجزائر، د ط، 1988، ص:

86

¹⁸ ابن خلدون عبد الرحمن، مرجع سابق، ص: 31

¹⁹ بدوي محمد، علم الاجتماع ومشكلات المجتمع، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، د ط، 1995، ص: 57

²⁰ نفس المرجع، ص: 58

- 1- دراسته للعمران البشري بصفة عامة وناقش تأثيرات البيئة.
 - 2- دراسة العمران البدوي والعمران الحضري من حيث مناقشته لنشأة الظواهر الاجتماعية وتطور المجتمعات من الحالة الفطرية إلى الحالة المدنية.
 - 3- دراسة الدولة والسياسة والملك ففي هذه دراسة تناول ظروف وشروط نجاح السياسة والدولة.
 - 4- دراسة النظم الاقتصادية مثل الصنائع والمعاش والحرف.
 - 5- دراسة الثقافة والجانب الفكري للدولة والمجتمعات بما في ذلك من العلوم والفنون.
- إذن ما تم عرضه نتوصل إلى أن ابن خلدون اتبع منهج التاريخ لدراساته هاته بحيث أراد معرفة مايلي²¹:
- القوانين الثابتة للمجتمع.
 - العوارض الطارئة على المجتمع.
 - الظروف الذي يستحيل سريانها على المجتمع.
- ثالثا/ أسبقية البدو على الحضر (المدينة):** يرى ابن خلدون أن "البدو أقدم من الحضر وسابق عليه وأن البادية أصل العمران والأمصار مدد لها".²² فقد ذكر ابن خلدون أن البدو تقتصر حاجاتهم على الضروري في حياتهم العامة، أما الحضر يعتنون بحاجات الترف والكمال، وهذا مما جعله يذهب إلى أن "الضروري أقدم من الحاجي والكمالي سابق عليه، لأن الضروري أصل والكمالي فرع ناشئ عنه، فالبدو أصل للمدن والحضر وسابق عليهما؛ لأن أول مطالب الانسان الضروري، ولا ينتهي إلى الكمال والترف إلا إذا كان الضروري حاصلا. فخشونة البداوة قبل رقة الحضارة، ولهذا نجد التمدن غاية للبدوي يجري إليها، وينتهي بسعيه إلى مقترحه منها".²³ ومن خلال هذه العبارة نجد هناك أسبقية البدو (البادية) على الحضر (المدينة) وقد علل بذلك أن الضروري هي خاصية وسمة يختص بها البدو والكمالي هي سمة يختص بها الحضر ؛ وأن الضروري سابق على الحاجي والكمالي، فاستنتج أن البدو سابق على الحضر وهو فرع منها وأن البدو أصل العمران.

²¹ نفس المرجع، ص: 57

²² ابن خلدون عبد الرحمن، مرجع سابق، ص: 101.

²³ ابن خلدون عبد الرحمن، مرجع سابق، ص: 101

رابعاً/ أسبقية الدولة على المدينة: في هذا المجال نجد ابن خلدون يؤكد على "أن البناء واختطاط المنازل إنما هو من منازع الحضارة التي يدعو إليها الترف والدعة"²⁴ أي أن المدينة وبنائها هي رمز من رموز الحضارة فهما وجهان لعملة واحدة. ويذهب كذلك إلى القول: "المدن والأمصار ذات هياكل وأجرام عظيمة وبناء كبيرة، وهي موضوعة للعموم لا للخصوص، فحتاج إلى اجتماع الأيدي، وكثرة التعاون، وليست من الأمور الضرورية للناس التي تعم بها البلوى، حتى يكون نزوعهم إليها اضطراباً... فلا بد في تمصير الأمصار واختطاط المدن من الدولة والملك."²⁵ وفي نفس هذا السياق قد قرر ابن خلدون أن المدينة تنشأ من طرف الدولة والملك وأن لهما دور في قيام حضارة وإنشاء أمة راقية. ثم انتقل ابن خلدون إلى الحديث عما يحدث بعد بناء المدينة من نمو واتساع وتشييدات عامة مع ربطه بقوة أو ضعف الدولة وطول وقصر مدة حكمها إذ يعبر: "قعر الدولة حينئذ عمر لها: فإن كان عمر الدولة قصيراً وقف الحال فيها عند انتهاء الدولة وتراجع عمرانها وخربت، وإن كان أمد الدولة طويلاً ومدتها منفسحة، فلا تزال المصانع فيها تشاد والمنازل الرحبية تكثر وتتعدد، ونطاق الأسواق يتباعد وينفسح، إلى أن تتسع الخطّة وتبعد المسافة وينفسح نزع المساجد كما وقع ببغداد وأمثالها."²⁶ ولذلك قد أشار ابن خلدون إلى مثال يعكس هذه العبرة إلى الحمامات التي ذكرها الخطيب في إحدى مؤلفاته بأن هذه الحمامات ببغداد لعهد المأمون بلغ عددها 65 ألف حمام والتي جعلت من هذه المدينة تشتمل على مدن متلاصقة ومقاربة والتي تجاوزت 40 مدينة، وعدمية وجود مدينة أحادية يجمعها صور واحد يرجع إلى الإفراط في عمرانها، وهو بذلك يقدم حالة بعض المدن مثل القيروان، وقرطبة، والمهدية في الملة الإسلامية وكذلك مصر القاهرة.²⁷

خامساً/ الأنساب في المدينة: يرى ابن خلدون أن النسب كان يأخذ بجدية واهتمام وبدرجة كبيرة في البدو إلا أن الحضر أو المدينة عكس ذلك، لأنهم حسب اعتقاده يرجع ذلك لعدم الاحتياج الذي عليه البوادي من جهة؛ بحيث أن سكان المدينة يوجهون اهتمامهم بصناعاتهم ومهنهم ومتاجرهم والتي كفلت بالسلطان الذي يغنيها عن تمسك القبيلة، وأن تعنتي كل قبيلة بأفرادها ضد العدو؛ كما قد لاحظ ومما شاهده حول العمران في مصر من الأمصار يقل الاعتناء بالأنساب ويهتمون سوى

²⁴ نفس المرجع، ص: 285²⁵ نفس المرجع، ص: 285²⁶ نفس المرجع، ص: 285²⁷ ابن خلدون عبد الرحمن، مرجع سابق، ص: 285

بأعمالهم ووصل إلى نتيجة مفادها أن كلما كان المجتمع في حالة البداوة اشتد عنايته بالأنساب، وغلبت العصبية التي تعتبر من طبيعة الاعتناء بالنسب وقد استنتج كذلك بأن الحفاظ على النسب لا يقتصر فقط عند البوادي بل وجده كذلك عند العرب الحواضر...إذن فالعرب ككل يعتنون بالنسب وكل قبيلة راضية بنسبها؛ وتحفظ مآثر قومها، وتعزّز بالاعتزاز إلى سلفها.²⁸

فالانتصار على العدو يتوقف حسب درجة عصبية والحفاظ على الانتساب لدى القبيلة. ومما استدل عليه ابن خلدون للتدقيق على هذه الفكرة من حيث قرب النسب أو بعده، وترتيب الصداقة والعداوة على درجات القرب والبعد فقد انقسم العرب إلى شعبين كبيرين (عدنان وقحطان).²⁹ وقد أرجع ابن خلدون انقسام العرب إلى عدم تمسكهم بالأنساب لأنه يراه من الفضائل الاجتماعية التي يتمكن من خلالها المجتمع أن يرتقي، ويعتني بأصالته ونقاوة سلالته.³⁰

وهو ما تحدث عنه في فصل أن البوادي من القبائل والعصائب مغلوبون لأهل الأمصار قد تقدم لنا أن عمران البادية ناقص عن عمران الحواضر والأمصار؛ لأن الأمور الضرورية في العمران ليس كلها موجودة لأهل البدو، وإنما توجد لديهم في مواطنهم أمور الفلح، وموادها معدومة ومعظمها الصنائع، فلا توجد لديهم بالكلية من نجار وخياط وحداد وأمثال ذلك مما يقيم لهم ضروريات معاشهم في الفلح وغيره...وإنما بأيديهم أعواضا من مغلّ الزراعة وأعيان الحيوان أو فضلاته ألبانا وأوبارا وأشعارا وإهابا مما يحتاج إليه أهل الأمصار...إلا أن حاجتهم إلى الأمصار في الضروري، وحاجة أهل الأمصار إليهم في الحاجي والكمالي، فهم محتاجون إلى الأمصار بطبيعة وجودهم، فما داموا في البادية ولم يحصل لهم ملك ولا استيلاء على الأمصار فهم محتاجون إلى أهلها ويتصرفون في مصالحهم وطاعتهم متى دعوهم إلى ذلك.³¹

سادسا/ تشييد وبناء المدن: يعبر ابن خلدون قائلا: "أن تشييد المدن إنما يحصل باجتماع الفعلة وكثرتهم وتعاونهم، فإذا كانت الدولة عظيمة متسعة الممالك، حُشِرَ الفَعْلَةُ من أقطارها، وجمعت

²⁸ أرسلان شكيب، تاريخ ابن خلدون "المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخير في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"، المطبعة الرحمانية، مصر، د ط، 1936، ص: 5.

²⁹ نفس المرجع، ص: 6

³⁰ نفس المرجع، ص: 17

³¹ ابن خلدون عبد الرحمن، مرجع سابق، ص: 126

أيديهم على عملها، وربما استعين في ذلك في أكثر الأمر بالهندام الذي يضاعف القوى والقدر في حمل ائقال البناء، لعجز القوة البشرية وضعفها عن ذلك.³²

فبناء المدينة يتوقف حسب رأيه على أساس العصبية والعمران والاجتماع وكذا قيمة التعاون أي بمعنى في الاتحاد قوة. وهو بذلك قدم لنا العديد من آثار حضارية مثل إيوان كسرى، أهرام مصر، والحنايا المعلقة وشرشال بالمغرب التي شيدت عن طريق اجتماعهم وتعاونهم.³³ وقد رد كذلك على من اعتقد بأن المباني التي تنسب إلى عهد قوم عاد والتي مفادها أن عظمت مصانعهم وبنائاتهم لعظم أجسامهم وتضاعف قدرهم استنادا إلى ذكر العديد من بناءات وآثار ومنها مباني العبيديين من الشيعة بإفريقية، والصنهاجيين والتي انتشرت أثارها في صومعة قلعة بني حماد، وبناء الأغالبة في جامع القيروان، وبناء الموحدين في رباط الفتح، ورباط السلطان في المنصورة بتلمسان وغيرها من المباني والهياكل التي شيدت؛ وتيقنه من أن بناء وتشيد هذه الأخيرة لا يرجع إلى مقادير أجسامهم المفرط وإنما إلى اجتماع الفعلة وكثرتهم وتعاونهم (العمران).³⁴ وهنا تظهر الفكرة الأساسية أن نظرة ابن خلدون للمدينة بأنها عبارة عن نظام اجتماعي ذات هندسة معمارية منطقية تخضع لقوانين موضوعية ومعقنة.³⁵

سابعاً/ الشروط التي يجب مراعاتها لبناء مدينة: فالفكرة الأساسية هنا هو أن المدينة قرار تتخذه الأمم عند حصولها على غاية الترف ودواعيه³⁶ وتأسيس المدينة تتوقف على الشروط التالية:

- الحماية ودفع المضار عن المدينة: إذ يعبر "فيراعي لها أن يدار على منازلها جميعا سياج الأسوار، وأن يكون وضع ذلك في الممتنع من الأمكنة؛ إما على هضبة متوعدة من الجبل، وإما باستدارة بحر أو نهر بها، حتى لا يوصل إليها إلا بعد العبور على جسر أو قنطرة فيصعب منالها على العدو ويتضاعف امتناعها وحصنها."³⁷ أي ابن خلدون دعى إلى ضرورة حماية المدينة بتحسينها وذلك بإحاطتها بسياج الأسوار؛ وأن تكون في أماكن يصعب وصول العدو إليها كالهضبة التي بالجبال أو إحاطتها بالبحار والأنهار .

³² نفس المرجع، ص: 286

³³ نفس المرجع، ص: 287

³⁴ نفس المرجع، ص: 287

³⁵ مغربي عبد الغني، مرجع سابق، ص: 168.

³⁶ ابن خلدون عبد الرحمن، نفس المرجع، ص: 288

³⁷ نفس المرجع، ص: 288

- حمايتها من الآفات البيئية: "طيب الهواء لسلامة من الأمراض، فإن الهواء إذا كان راكدا خبيثا، أو مجاورا للمياه الفاسدة أو مناطق متعفنة أو مروج خبيثة أسرع إليها العفن من مجاورته، فأسرع المرض للحيوان الكائن فيه لا محالة."³⁸ فمن أهم الشروط التي يجب مراعاتها في تشييد المدينة لابتد من مراعاة طبيعة الهواء والبيئة الجغرافية لأنهما يؤثران على الحياة العامة وصحة وسلوكيات سكان المدينة.

- كثرة العمران والسكن: "والبلد إذا كان كثير الساكن وكثرت حركات أهله فيتموج الهواء ضرورة، وتحدث الرياح المتخللة للهواء الراكد، ويكون ذلك معنا له على الحركة والتموج، وإذا خف الساكن لم يجد الهواء معنا على حركته وتموجه، وبقي ساكنا راكدا، وعظم عفنه وكثر ضرره."³⁹ وهو بذلك يعطي مثلا حول مدينة قابس بإفريقية التي كانت تمتاز بكثرة الساكن وتموج بأهلها مما أثر على تموج الهواء واضطرابه وتخفيف الأذى منه فقد تناقص العفن وندرت الأمراض أما عندما قل أو خف ساكنها ركد هوائها وانتشر العفن بفساد مياهها، وكثرة المرض.⁴⁰ أي أن نقاء الهواء يتوقف بدرجة كبيرة على حركة العمران والسكن فكلمات زادت الحركة زاد نقاء الهواء والماء وتحصن من الأمراض وكلما ضعفت الحركة العمران وقل الساكن انشر وتوسع العفن والمرض. (علاقة العمران وحركته بالابتعاد وتجنب المرض والعفن؛ والعكس صحيح).

- مراعاة توفر المياه: "يراعي فيه أمور: منها الماء، بأن يكون البلد على نهر، أو بإزائها عيون عذبة نيرة، فإن وجود الماء قريبا من البلد يسهل على الساكن حاجة الماء وهي ضرورية، فيكون لهم في وجوده مرفقة عظيمة عامة."⁴¹

- مراعاة الجانب والانتاج الفلاحي لتوفير الحاجيات الضرورية والتغلب على قوى الطبيعة: "لا بد له من دواجن الحيوان للنتاج والضرع والركوب، ولا بد لها من المرعى...ومما يراعى أيضا المزارع، فإن الزروع هي الأقوات...ومن ذلك الشجر للحطب والبناء، فإن الحطب مما تعم البلوى في اتخاذه لوقود النيران للاصطلاح والطبخ، والخشب أيضا ضروري لسقفهم وكثير مما يستعمل في الخشب من ضرورياتهم."⁴²

³⁸ نفس المرجع، ص: 288-289

³⁹ نفس المرجع، ص: 289.

⁴⁰ ابن خلدون عبد الرحمان، مرجع سابق، ص: 289

⁴¹ نفس المرجع، ص: 289

⁴² نفس المرجع، ص: 289-290

ثامنا/ نشأة الحضارة والمدينة: فقد شبه ابن خلدون عمر الحضارة بعمر الشخص من بداية نمو الحضارة إلى غاية نهايتها؛ ونشأتها إلى غايتها؛ وميلادها وهرمها. إذ قد وضع ثلاثة أعمار للحضارة وهي:

1- العمر الأول (البداوة): "لم يزلوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها من شظف العيش والبسالة والافتراس والاشتراك في المجد، فلا تزال بذلك سورة العصبية محفوظة فيهم، فحدهم مرفه، وجانبهم مرهوب، والناس مغلوبون"⁴³

2- العمر الثاني: انتقالها من البداوة إلى الحضارة: في هذا السياق عرف ابن خلدون الحضارة بأنها هي: "تفنن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني والفرش والأبنية وسائر عوائد المنزل وأحواله، فكل واحد منها صنائع في استجادته والتأنق فيه تختص به ويتلو بعضها بعضا، وتتكرر باختلاف ما تنزع إليه النفوس من الشهوات والملاذ وتتم بأحوال الترف...فصار طور الحضارة في الفلك يتبع طور البداوة ضرورة."⁴⁴ فالحضارة أو المدينة حسب فكره تمر بمراحل وهي البداوة وما تتسم به من العصبية والعشيرة؛ ثم السياسة والملك وما تسيرها من أخلاق والشروط السابق ذكرها؛ ثم مرحلة التشييد والبناء للحضارة والمدينة (الحضر). بحيث انتقل الدولة من البداوة إلى الحضارة تبدأ تدريجيا بانكسار سورة العصبية شيئا فشيئا، وتؤنس منهم المهانة والخضوع.⁴⁵ وكذلك قد بين ووضح بأن الحضارة هي "نهاية العمران وخروجه إلى الفساد، والبعد عن الخير."⁴⁶

3- العمر الثالث: زوال البداوة والخشونة؛ فقدان العصبية وطغيان فيه القهر؛ وزيادة الترف والخصب؛ غياب الحماية والمدافعة والمطالبة واللامبالاة وعدم الاهتمام بالقيم الجماعية؛ التموه بحسن الثقافة؛ إلى أن تدخل الدولة في غمار الاضمحلال والزوال وهرمها وتخلفها.⁴⁷ فالحضارة والمدينة حسب فكر ابن خلدون تمر ب4 مراحل وهي: البداوة، حضارة وتمدن، الترف والخصب، وأخيرا التدهور والأفول.

⁴³ نفس المرجع، ص: 140

⁴⁴ ابن خلدون عبد الرحمان، مرجع سابق، ص: 141

⁴⁵ نفس المرجع، ص: 140

⁴⁶ نفس المرجع، ص: 102

⁴⁷ نفس المرجع، ص: 140

تاسعا/ دور الفكر في بناء الحضارة والمدينة:

"لما كان الإنسان متميزا عن سائر الحيوانات بخواص اختصّ بها، فمنها العلوم والصنائع التي هي نتيجة الفكر التي تميّز به عن الحيوانات، وشرف بوصفه على المخلوقات، ومنها الحاجة إلى الحكم الوازع والسلطان القاهر؛ إذ لا يمكن وجوده دون ذلك، (ولا يشبهه في ذلك) من بين الحيوانات كلها.⁴⁸ و"جعل للإنسان عوضاً من ذلك كله الفكر واليد، فاليد مهيئة للصنائع تحصل له الآلات التي تنوب له عن الجوارح المعدة في سائر الحيوانات للدفاع.⁴⁹ وقد قدم أمثلة على ذلك كالرماح التي تصنع من القرون الناطحة، والسيوف من المخالب الجارحة، والتراس من البشرات الجاسية وغيرها مما ذكره جالينوس في مؤلفه منافع الأعضاء.⁵⁰ إذن فالفكر هي خاصية يختص بها الإنسان لوحده قط؛ كما قد سخر الله له أشياء وحيوانات لخدمته والحفاظ على بقاء نوعه؛ والفكر هو الوسيلة الناجعة في كيفية استغلال هذه الأشياء سواء كان هذا للدفاع أو تحصيل قوت يومه أو الحصول على الغذاء ليضمن بقاءه ويكفل الحفاظ على نوعه واعتباره واستكثاره، وهذا الذي يعتبر غاية العمران أو الاجتماع الإنساني.

عاشرا/ الخصائص والسمات التي يتصف بها سكان الحضر (المدينة):

لقد ذكر ابن خلدون العديد من الصفات التي امتاز بها سكان المدينة وذلك اعتمادا على ملاحظاته ورحلاته وقراءاته ومن بين هذه الخصائص نستخلصها فيما يلي:

أ- الصفات الجسمية: "يذهب لذلك غلظها ويَرَقُّ قوامها، وعامة مآكلهم لحوم الضأن والدجاج، ولا يغبطون السمن من بين الأدم لتقاوته، فتقل الرطوبات لذلك في أغذيتهم ويخف ما تؤديه إلى أجسامهم من الفضلات الرديئة، فلذلك نجد جسوم أهل الأمصار ألطف من جسوم أهل البادية المخشنيين في العيش."⁵¹

ب- الصفات الدينية: قلة أهل الدين في المدن والأمصار وتسود فيهم القساوة والغفلة وسببها

اكتثارهم من اللّحمان والأدم ولباب البُرِّ وغيرها من صفات التي يتصف بها سكان الحضر.⁵²

⁴⁸ نفس المرجع، ص: 33

⁴⁹ نفس المرجع، ص: 35

⁵⁰ نفس المرجع، ص: 35

⁵¹ ابن خلدون عبد الرحمان، مرجع سابق، ص: 73

⁵² نفس المرجع، ص: 74

ت- الصفات الخُلُقِيَّة: "أهل الحضر لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف والإقبال على الدنيا والعكوف على شهواتهم منها، قد تلوثت أنفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر، وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من ذلك، حتى لقت ذهبت عنهم مذاهب الحشمة في أحوالهم، فتجد الكثير منهم يقذعون في أقوال الفحشاء في مجالسهم وبين كبرائهم وأهل محارمهم، لا يصددهم عنه وازع الحشمة، لما أخذتهم به عوائد السوء في التظاهر بالفواحش قولاً وعملاً."⁵³

(2) مالك بن نبي

أ- التعريف بمالك بن نبي: قدم ابن خلدون نفسه وسيرته في مؤلفه مذكرات شاهد القرن بقسميه: الطفل والطالب؛ فاسمه الكامل هو مالك بن الحاج عمر بن الخضر بن مصطفى بن نبي، من مواليد 06 ذي القعدة 1323 هـ الموافق ل 28 جانفي 1905م؛ حيث قد وصف مالك هذه الفترة بأنها فترة يتصل فيها وعيه بالماضي الممثل في أواخر شهوده، وبالمستقبل المتمثل في أوائل صائغيه.⁵⁴ وكان الابن الوحيد لأسرته وله ثلاث أخوات، كما قد تبنته خال أمه وزوجته في سن مبكرة ثم رجع إلى أسرته الأصلية بتبسة بعد موت الخال، وكان والده خريج المدرسة الرسمية التي كانت تدرس باللغتين (العربية والفرنسية) وهذا مما شجعه على الدراسة بفرنسا.⁵⁵

والتحق مالك بن نبي سنة 1921م بالثانوية والتي سميت بالمدرسة الفرنسية الإسلامية بمدينة قسنطينة، حيث ساهمت هذه المدرسة في تشكيل وتكوين فكره فقد تأثر بمدرسه الفرنسية المدعو ميسو مارتين، وكذا قراءته مجموعة من كتب التي غدت اهتماماته الفكرية، وكذلك انخرط في هذه الفترة في حلقات الشيخ مولود بن موهوب مدرس الفلسفة والعلوم الدينية، وكان من دعاة الإصلاح الديني والاجتماعي، وإلى التقدم وتحصيل العلوم الحديثة والأفكار الأوروبية.⁵⁶ وعندما انتقل إلى تبسة وأقيم في مدينة أفلو سنة 1927م التقى بابن باديس.⁵⁷

كما قد بدأ عمله الفكري في الترجمة والتأليف ومواصلة تنظيم ندوات ثقافية بالجزائر المستقلة سياسيا إلا أنها تتميز بالتخلف والتأخر عن العالم الأوروبي والأمريكي، وقدرتها على التحكم في

⁵³ نفس المرجع، ص: 102

⁵⁴ بن حمد العويسي عبد الله، مالك بن نبي "حياته وفكره"، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط: 1، 2012، ص: 51 . 52

⁵⁵ برون فوزية، مالك بن نبي "عصره وحياته ونظريته في الحضارة"، دار الفكر، دمشق، ط: 1، 2010، ص: 104

⁵⁶ نفس المرجع، ص: 105 . 106

⁵⁷ بن نبي مالك، مذكرات شاهد للقرن الطفل والطالب، تر: عمر المسقاوي، دار الفكر، دمشق، ط: 2، 1984، ص: 184

وسائل العمل وتنظيم المجتمع، وكان كذلك صاحب قضية ونضال وفكر المرتبط بالجزائر سواء من ناحيته السياسية أو الاجتماعية، وذلك من خلال القيام بالعديد من الدراسات التحليلية في شكل مؤلفات وكتب تحت سلسلة "مشكلات الحضارة" باللغتين العربية والفرنسية. حتى توفي يوم 04 من شوال 1393 هـ الموافق ل 31 أكتوبر 1973م، تاركا خلفه إنتاج فكري ونضال سياسي في تاريخ الجزائر.⁵⁸

ب- مؤلفاته: ضم مالك بن نبي العديد من مؤلفاته وكتبه ومقالاته تحت عنوان "مشكلات الحضارة" وأهمها منها:

- الظاهرة القرآنية.
- المسلم في عالم الاقتصاد.
- تأملات.
- في مهب المعركة.
- القضايا الكبرى.
- بين الرشاد والتيه.
- شروط النهضة.
- فكرة الإفريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر باندونغ.
- مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي.
- مشكلة الثقافة.
- وجهة العالم الإسلامي.
- ميلاد مجتمع.
- شروط النهضة.
- مذكرات شاهد للقرن.
- الصراع الفكري في البلاد المستعمرة.

ج- أفكاره وتحليله لمفهوم الحضارة والمدينة:

قد ساهمت أفكار ابن خلدون بصورة واضحة في تشكيل فكر مالك بن نبي حتى لقب بابن خلدون القرن العشرين؛ فابن خلدون الذي كان له الفضل في الكشف علم جديد سماه بعلم العمران البشري

⁵⁸ بوبكر جيلالي، البناء الحضاري عند مالك بن نبي، دار المعرفة، الجزائر، د ط، د س، ص ص: 18 . 19

أو الاجتماع الانساني؛ والذي حدد قواعد ومنهج دراسة هذا العلم كما وضحناه سابقا في الكشف عن قوانين حركة الاجتماع البشري، وبذلك قد واصل بن نبي هذه الأفكار المتعلقة والمرتبطة بمفهوم « العمران البشري » وأولها في حلة جديدة، ومن بين أهم أشهر مقولة التي توضح أن بن نبي قد تأثر بان خلدون القائلة: « يعتبر التاريخ دراسة اجتماعية، إذ يكون دراسته لشرائط نمو مجتمع معين لا يقوم نموه على حقائق الجنس أو عوامل السياسة، بقدر ما يخضع لخصائصه الأخلاقية والجمالية الصناعة المتوفرة في رقعة تلك الحضارة.⁵⁹ » بحيث اهتم بن نبي في دراسته بالقيم والأفكار التي كان لها دور في رقي الحضارة، ولا يعطي الأولوية لتلك الظواهر السياسية ولا عامل الجنس. أي غلب في تحليله الاجتماعي مفهومي الأفكار والقيم بحيث يعتبرها من أهم ما يحمله المجتمع كما هي سر ميلاده وأفوله، وقد اتبع منهجية ابن خلدون في قراءاته التاريخية.⁶⁰ ومن بين الأفكار الحضارية التي ضمنها بن نبي في مؤلفاته السابق ذكرها نستخلصها فيما يلي:

أولا/ المجتمع وأنواعه: قد حدد بن نبي نوعين من المجتمع (العمران) وهما:

- **النوع الأول: المجتمع الطبيعي أو البدائي:** وهو "الذي لم يعدل، بطريقة محسنة، المعالم التي تجدد شخصيته منذ كان."⁶¹ بحيث هذا النوع وصفه بالسكون والثبات، وقد استدل إلى أمثلة ونماذج لهذا النوع ومنها المجتمعات الموجودة في مستعمرة النمل والنحل، والقبيلة الإفريقية في عصر ما قبل الاستعمار، والقبيلة العربية في العصر الجاهلي.⁶²

- **النوع الثاني: المجتمع التاريخي أو الحضري:** وهو "الذي ولد في ظروف أولية معينة؛ ولكن عدل من بعد، صفاته الجذرية ابتداء من هذه الحالة الأولية، طبقا لقانون تطوره."⁶³ وقد وصف بن نبي هذا النوع بالنموذج المتحرك والذي يقصد به أنه يخضع لقانون التغيير وله القدرة في تعديل معالمه من جذورها. وأن هذا النوع متعدد الصور فهو يختلف من نشأته من جهة؛ ويختلف في شكل بنائه من جهة أخرى.⁶⁴

⁵⁹ أمزيان مجّد، تلازم الموضوعية والمعيارية في الميثودولوجيا الإسلامية، كتاب جماعي، قضايا منهجية في العلوم الإسلامية والاجتماعية، سلسلة المنهجية الإسلامية 12، تحرير مجّد نصر عارف، المعهد العلمي للفكر الانساني، ط: 1، 1996، ص: 73

⁶⁰ الخليفة المشيشي مولاي، مالك بن نبي "دراسة استقرائية مقارنة، دار النايا للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، ط: 1، 2012، ص: 111

⁶¹ بن نبي مالك، ميلاد مجتمع "شبكة العلاقات الاجتماعية"، تر: شاهين عبد الصبور، دار الفكر، الجزائر، ج: 1، ط: 3، 1986، ص: 9

⁶² نفس المرجع، ص: 9

⁶³ نفس المرجع، ص: 9

⁶⁴ نفس المرجع، ص: 10

وقد حدد بن نبي طريقتين ونوعين لهذا المجتمع (التاريخي) وهما :

1- طرق بناء المجتمع التاريخي:

أ- التركيب بمواد جديدة (الابداع والخلق): "فهو إما يتركب ابتداء من مواد جديدة، أي من مواد لم تتعرض لأي تغيير تاريخي سابق، فهو يستنفد هذه المواد، في الحالة التي تكون عليها في الطبيعة، وبهذه الطريقة نشأت المجتمعات التاريخية الأولى، إبان الثورة الزراعية في العصر الحجري الجديد. ولكن هذا النوع قد يتكون أيضا من عناصر استخدمت في مجتمع تاريخي سابق، تحولت عناصره المكونة له، بسبب تقادمه أو انبساط رقعته، إلى عناصر مهيأة للاستخدام في مجتمع جديد.⁶⁵

ب- الاستعارة والتقليد: ومن بين أهم صور هذه الاستعارة هي الهجرة بحيث عن طريقها تم تبني عناصر ثقافية وحضارية من المجتمع الأصلي، وذلك انطلاقا من رؤيته التي مفادها بأن تكوين المجتمع الأمريكي في زمن بن نبي؛ كانت الهجرة عامل أساسي في تشكيل المجتمع وتكوينه نتيجة استعارته لبعض عناصر التي قدمها له المجتمع المتحضر وهو المجتمع الأوروبي في القرن 16، والهجرة التي ساهمت في تكوين مجتمع الأسكيمو الذي أعار عناصر بنائه من المجتمعات المغولية الصينية في الشرق الأقصى.⁶⁶

وأما الصورة الثانية للاستعارة هي أخذ أو إعادة تركيب مجتمع أو مجتمعات اختفت، وهو قدم مثلا لذلك حول المجتمع الروماني الذي اعتمد في بنائه على المجتمعات التي اختفت... وغيرها من المجتمعات التي استعارت أفكار وقيم في تشكيلها من حضارات ومجتمعات سابقة.⁶⁷ وهذا ما قد ذهب إليه ابن خلدون "يقلدون في طور الحضارة وأحوالها للدولة السابقة قبلهم، فأحوالهم يشاهدون، ومنهم في الغالب يأخذون."⁶⁸

ويعتبر بن نبي أن المجتمع التاريخي لا يظهر بصورة مفاجئة أو من عدم، وإنما يراه بأنه يأتي نتيجة عملية تغيير مطردة يشترك فيها المجتمع الذي يستعير، والآخر الذي يقدم ما أعير منه؛ فيتأثر كلاهما، كما أن هذه العملية تتم وفق تخطيط نظري شامل على اعتبارات وهي:⁶⁹

⁶⁵ نفس المرجع، ص: 10

⁶⁶ بن نبي مالك، ميلاد مجتمع "شبكة العلاقات الاجتماعية"، مرجع سابق، ص: 10

⁶⁷ نفس المرجع، ص: 10

⁶⁸ ابن خلدون عبد الرحمن، مرجع سابق، ص: 141

⁶⁹ بن نبي مالك، ميلاد مجتمع "شبكة العلاقات الاجتماعية"، نفس المرجع، ص: 11

* المصدر التاريخي لعملية التغيير المطردة.

* المواد التي تمر بتأثير هذا التغيير من حالتها قبل الاجتماعية، مروراً يمكن معه أن تحوزها اليد المغيرة إلى حالتها الاجتماعية الجديدة.

* القواعد العامة أو القوانين التي تتحكم في هذا التغيير.

2- أنواع المجتمع التاريخي: استنتج بن نبي نوعين من المجتمع التاريخي وذلك نظراً مما يتعرض للمجتمعات للتنوع الناشئ عن الظرف التاريخي الذي يكون عاملاً لميلاده وهما:

أ- المجتمع الذي يولد نتيجة لإجابة عن اختيار مفروض: حيث هناك ظروف طبيعية خاصة ومرتبطة به تفرض نفسها عليه؛ سواء كان هذا المجتمع قد تعرض للتنوع مفاجئ، أم عناصر مكونة له قد واجهت فجأة ظروف وسط طبيعي جديد. وقد أطلق عليه تسمية «النموذج الجغرافي». وقد أدرج بن نبي المجتمع الأمريكي إلى هذا النوع؛ لأنه يعتبره ثمرة هجرة المجتمع الأمريكي إلى أوروبا فقد اضطر إلى تكيفها مع الظروف الطبيعية في بيئتها الجديدة.⁷⁰

ب- المجتمع التاريخي الذي يرى النور تلبية لنداء فكرة: وقد أطلق عليه تسمية «النموذج الفكري (الإيديولوجي)». ⁷¹ وقد أدرج في هذا النوع كلا من المجتمع الإسلامي، والمجتمع الأوروبي الأصلي التي ظهرت نتيجة لفكرة دينية (القرآن والانجيل والتوراة) الكتب السماوية.⁷² أي أنه قد جسد المجتمع في رجل واحد الذي يعتبر نواة المجتمع في طريق النشئ وفي هذا سياق تأتي كلمة «أمة» والتي ذكرت في القرآن الكريم في قول الله عز وجل: { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120) } سورة النحل الآية: 120... فالفكرة التي لها دور في تحريك المجتمع وتوليد فعالية اجتماعية في أفراده يستلزم على أن تكون متأصلة تاريخياً حتى نطلق عليه مجتمع تاريخي أي لابد من مراعات ظروفه النفسية والاجتماعية (الخصوصية الثقافية).⁷³

وإذ يعبر بن نبي بأن: "مجال المجتمع ليس كمجال الميكانيكا، وهو لا يرتضي كل الاستعارات، لأن أي حل ذي طابع اجتماعي يشتمل تقريباً ودائماً على عناصر لا توزن، ولا يمكن تعريفها، ولا يمكن أن تدخل في صيغة التعريف، على حين تعد ضمناً جزءاً منه لا يستغني عنه، عندما تطبق

⁷⁰ بن نبي مالك، ميلاد مجتمع "شبكة العلاقات الاجتماعية"، مرجع سابق، ص: 11

⁷¹ نفس المرجع، ص: 11

⁷² نفس المرجع، ص: 12

⁷³ الخليفة المشيشي مولاي، مرجع سابق، ص: 113-114

في ظروف عادية، أي في ظروف البلاد التي نستوردها منها.⁷⁴ وأيضا "هذه العناصر جزء من المحيط الاجتماعي، -في حالة التي يطبق التعريف خارج هذا المحيط - تطبق تلقائيا في صورة فكرة يفرضها الوسط على سلوكنا. فإن لم توجد يصبح التعريف زائفا تقريبا، إذ تتقصه بعض الأشياء التي ضاعت حين انفصل عن ظروفه الأصلية."⁷⁵ (الأفكار الموضوعية والأفكار المطبوعة) من خلال هذه العبارات نتوصل إلى أن كل مجتمع يحمل خصائص بنائية ملتصقة به فهي التي تكون له شخصيته ودوره التاريخي والحضاري والتي تتماشى مع أطوار نموه الثقافي والفكري إذن فإن: "نهضة مجتمع ما تتم في الظروف العامة نفسها التي تم فيها ميلاده، كذلك يخضع بناؤه وإعادة هذا البناء للقانون نفسه. هذا القانون هو الذي عبر عنه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن بلغة أخرى حين قال: « لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها. » " ⁷⁶

فنموذج المجتمع المتحرك خاضع لقانون التغيير استجابة لنداء فكرة بحيث يعدل وفق معالمه من جذورها، ومن ثم فلا يتحدد المجتمع بالأفراد ولا بالجغرافيا وإنما بالعلاقات النفسية والمبدئية التي تجمع أفرادها بالمثل الأعلى الذي يعيشون من أجله، فالمجتمع في بداية ميلاده يكون عبارة عن فكرة وقيم ثم ينتقل إلى البنيات والمؤسسات أو تجمعها بشريا.⁷⁷

ثانيا/ طرق إنتاج المعرفة الحضارية: الانسان كائن اجتماعي بطبعه فلا يمكن عزله عن الجماعة لأنه بها يستأنس وتتشكل شخصيته وتحوله من كائن بيولوجي إلى كائن اجتماعي حضري. فقد حدد بن نبي طريقتين في بناء هذه الحضارة وتشكيل هذه المعرفة وتحويل هذا الكائن، وهما قائلا في مؤلفه مشكلة الأفكار بأن: "هناك أساسا طريقتان لملء هذا الفراغ. فإما ينظر المرء حول قدميه، أي نحو الأرض. وإما يرفع بصره نحو السماء."⁷⁸

فالطريقة الأولى تتمثل في تعرف الانسان وملء فراغه بالأشياء (عالم الأشياء) ويتوجه بصره المتسلط نحو امتلاكها، وأما الطريقة الثانية تتمثل في ملء هذا الفراغ بالأفكار (عالم الأفكار) وذلك بالبحث عن الحقيقة وبنائها واكتشافها ومحاولة البحث عن أصل الأشياء.

⁷⁴ بن نبي مالك، ميلاد مجتمع "شبكة العلاقات الاجتماعية"، مرجع سابق، ص: 102

⁷⁵ نفس المرجع، ص: 102

⁷⁶ بن نبي مالك، ميلاد مجتمع "شبكة العلاقات الاجتماعية"، مرجع سابق، ص: 76

⁷⁷ مولاي الخليفة المشيشي، مرجع سابق، ص: 113

⁷⁸ بن نبي مالك، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، تر: بسام بركة، أحمد شعبو، دار الفكر، دمشق، ط: 1، 1988، ص: 17

إذن فحسب نظر بن نبي أن هاتين الطريقتين ينتج عنهما نموذجين من الثقافة وهما: ثقافة سيطرة ذات جذور تقنية، وثقافة حضارة ذات جذور أخلاقية وغيبية.⁷⁹

ثالثاً/مراحل بناء المجتمع والحضارة: يرى مالك بن نبي أن المجتمع والحضارة تمر بمراحل مثلما هي مراحل النمو البيولوجي والنفسي والفكري عند الإنسان؛ إلا أنه يميز بينهما إذ يقول مالك بن نبي: "على الصعيد التاريخي لا مانع من الإشارة إلى أوجه التشابه بين بعض خصائص النمو العقلي عند الفرد وبين النمو النفسي الاجتماعي في المجتمع، والذي يبدو أنه يمر هو أيضاً بثلاث أعمار: 1- عمر الشيء 2- عمر الشخص 3 - عمر الفكرة. غير أن الانتقال هنا من مرحلة إلى أخرى ليس بالوضوح الذي نراه عند الفرد."⁸⁰

إذ يذهب بن نبي إلى إعطاء تعريف مفهوم « المجتمع » ارتباطاً بمعامل الزمن ذات دلالة نفسية واجتماعية قائلاً أن المجتمع هو عبارة عن: "الجماعة التي تغير دائماً خصائصها الاجتماعية بانتاج وسائل التغيير، مع عملها بالهدف الذي تسعى إليه من وراء هذا التغيير."⁸¹ واعتماداً على هذه الفكرة قدم بن نبي تفسير نفسي اجتماعي باعتبار أن المجتمع والحضارة تمر خلال تطورها بثلاثة (3) مراحل وهي:⁸²

1- مرحلة المجتمع قبل التحضر .

2- مرحلة المجتمع المتحضر .

3- مرحلة المجتمع بعد التحضر .

وقد شرح مالك بن نبي هذه المراحل بإسقاطها على دراسة تطور ونشأة المجتمع الإسلامي وذلك بما يلي:

مرحلة المجتمع الاسلامي قبل التحضر: يرى بن نبي أن في هذه المرحلة كان هذا المجتمع يتميز بالسكون؛ وهو الذي ينمي إلى النوع الأول من المجتمعات (المجتمع الطبيعي أو البدائي كما شرحناه سابقاً)؛ حيث كان عالم أشخاصه ينحصر على قبائل صغيرة ذات ثقافة محدودة وظروف

⁷⁹ نفس المرجع، ص: 17

⁸⁰ بن نبي مالك، تبسيط مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، تر: محمد عبد العظيم علي، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، ط: 1، 1997، ص: 16.

⁸¹ بن نبي مالك، ميلاد مجتمع "شبكة العلاقات الاجتماعية"، مرجع سابق، ص: 15

⁸² بن نبي مالك، تبسيط مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص: 17

معيشية جد بسيطة وهنا نجد مفهوم العمران عند ابن خلدون، وكذلك انتشار الجاهلية وعبادة الأوثان؛ كما أن عالم أشيائه كان منحصر على أشياء بدائية مثل السيف والرمح والجمل والخيمة، أما عالم أفكاره فقد ارتبط بظهور الشعر والقصائد. ووصف بن نبي هذا المجتمع بالمجتمع الجاهلي المنطوي على نفسه.⁸³

مرحلة المجتمع الاسلامي المتحضر: ظهرت هذه المرحلة بظهور الدين الاسلامي على شكل فكرة (وحي) بدأت بكلمة «اقرأ» على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، التي كانت لها دورها هاما في القضاء على الجاهلية وبزوغ مجتمع جديد بانتقاله من مرحلة قبل التحضر إلى مرحلة التحضر بدأ عالم أشخاصه بتأسيس عالم جديد يسخر فيه الأشياء من أجل الأفكار، حيث تميز هذا المجتمع بالنموذج الفريد والذي يمثل كمال الفكرة الاسلامية.⁸⁴ كما نجد أن مالك بن نبي قد وضع لهذه المرحلة ثلاثة أطوار اذ يقول في أحد مؤلفاته: "إذ تبدأ الحلقة الأولى بظهور فكرة دينية."⁸⁵ وهنا تتجلى فكرة طور النهضة والميلاد، وقال أيضا: "وهكذا وجدنا الحضارة الاسلامية تتوسع وتنتشر فوق الأرض، تتغلب أول على جاذبيتها بما تبقى لديها من مخزون روحي، حتى إذا ما وهنت فيها قوى الروح، وجدناها تخذل إلى الأرض شيئا فشيئا... يبدأ أفولها بتغلب جاذبية الأرض عليها، بعد أن تفقد الروح ثم العقل."⁸⁶ فهنا نستنتج أن هناك ثلاثة أطوار وهي: طور ظهور الفكرة ؛ طور الانتشار والمد، وطور الأفول والاندثار.

مرحلة المجتمع الاسلامي بعد التحضر: قد استند بن نبي في وصف هذه المرحلة اعتمادا على ما جاء به المفكر العربي ابن خلدون وهو مفهوم انفصام دورة الحضارة والانحطاط الحضاري والتخلف، فبدأ هذا المجتمع يرتد ويتراجع في حركته إلى الوراء حيث تجمدت الفكرة وانقلب على أعقابها؛ وقد تميز عالم أشخاصه بالتفكك في علاقاته وانتشار الأنانية؛ أما عالم أشيائه تصيح الأشياء هي المسيطرة على العقول والوعي.⁸⁷

رابعا/ الفكر والحضارة:

⁸³ نفس المرجع، ص: 17

⁸⁴ نفس المرجع، ص: 18

⁸⁵ بن نبي مالك، شروط النهضة، تر: عبد الصبور شاهين، وعمر كامل مسقاوي، دار الفكر، دمشق، د ط، 1986، ص: 53

⁸⁶ نفس المرجع، ص: 53

⁸⁷ بن نبي مالك، مشكلة الأفكار في العالم الاسلامي، مرجع سابق، ص: 40

ضمن مالك بن نبي في هذه المناقشة بتناول العلاقة بين الفكرة والحضارة فهو بذلك يقدم لنا تعريف الحضارة بأنها: "هي نتاج فكرة جوهرية تطبع على مجتمع في مرحلة ما قبل التحضر الدفعة التي تدخل به التاريخ. ويبني هذا المجتمع نظامه الفكري طبقاً للنموذج الأصلي لحضارته. إنه يتجذر في محيط ثقافي أصلي يحدد سائر خصائص التي تميزه عن الثقافات والحضارات الأخرى." ⁸⁸ فمن خلال هذه العبرة نجد أن الحضارة بالنسبة لديه هي نتيجة خبرة جماعية فكرية تدفع بالمجتمع إلى بناء عالم أشيائه والتي تتناسب مع ظروفه النفسية والاجتماعية والثقافية التي تميز هذا المجتمع عن باقي المجتمعات (الخصوصية الثقافية). وكذلك يبين أهمية الأفكار في بناء الحضارة وهو دورها الوظيفي إذ يعتبر أن الحضارة هي قدرتها على القيام بوظائفها ومهامها. ⁸⁹

خامساً/ الفرد والشخص: قد استخدم مالك بن نبي في هذا المجال مفهومين وهما الشخص والفرد ليعين علاقة الشخص بدوره الحضاري وأثره على الحركة التاريخية إذ يعبر هذا بقوله: "فالشخص في ذاته ليس مجرد فرد يكون النوع، وإنما هو الكائن المعقد الذي ينتج حضارة. وهذا الكائن هو في ذاته نتاج الحضارة، إذ هو يدين لها بكل ما يملك من أفكار وأشياء." ⁹⁰ و"إن العمل الأول في طريق التغيير الاجتماعي هو العمل الذي يغير الفرد من كونه (فرداً) <<Individu>> إلى أن يصبح (شخصاً) <<Personne>> وذلك بتغيير صفاته البدائية التي تربطه بالنوع إلى نزعات اجتماعية تربطه بالمجتمع." ⁹¹ و"إن الطبيعة توجد النوع، ولكن التاريخ يصنع المجتمع، وهدف الطبيعة هو مجرد المحافظة على البقاء، بينما غاية التاريخ أن يسير بركب التقدم نحو شكل من أشكال الحياة الراقية، هو ما نطلق عليه اسم الحضارة." ⁹² فالفرد حسب فكره هو ذلك الكائن البيولوجي (النوع) ذات خصائص تكوينية عضوية وجسمانية أي الوراثة والحاجات البيولوجية (أكل وشراب ونوم...) التي لها دورها في البقاء والحياة فقط والذي كان سائداً في المجتمع الطبيعي. أما الشخص فيعتبره الكائن المعقد الذي يصنع التاريخ يتغير من الفرد إلى الشخص أي تحوله من الكائن البيولوجي إلى الكائن الاجتماعي والمفكر الذي يواجه الطبيعة بكل ما أوتي من قوة وفكر وعبقريته والذي نجده في

⁸⁸ نفس المرجع، ص: 41

⁸⁹ نفس المرجع، ص: 42

⁹⁰ بن نبي مالك، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص: 29

⁹¹ نفس المرجع، ص: 31

⁹² نفس المرجع، ص: 19

المجتمع التاريخي كما سبق وأن تطرقنا إليها؛ كما أن تقوم هذه العملية على عاتق المجتمع الذي ينتمي إليه لذلك نحصر هذه العملية في مفهومين وهما التربية والتنشئة الاجتماعية وشبكة العلاقات الاجتماعية. ويرجع كذلك أن المجتمع هو الذي له القدرة على تحقيق ذوات أفرادها وأن الخروج عن هذا المجتمع يصبح ضعيفا.⁹³

ويرى بن نبي أن الحضارة تتم نشأتها عن طريق النشاط المشترك للعالم الثلاث⁹⁴:

أ- تأثير (عالم الأشخاص)

ب- تأثير (عالم الأفكار)

ت- تأثير (عالم الأشياء)

فقد وضع مالك بن نبي شرطا لعمل هذه العوالم في انشاء تاريخ ألا وهو أن تعمل بتوازن وبشكل جماعي لا منفرد ذات تواصل مستمر.

وقد قام بتحليل الحضارة إعتقادا على الطريقة الكيميائية إلى مجموعة عناصر إذ يصرح: "لكي نتناول هذه المشكلة على هذا الشكل يتعين علينا اللجوء إلى الطريقة المعتمدة في مختبر التحليلات".⁹⁵ وأيضا "فلنسلك هنا مسلك كيميائي، الذي يريد أن يصنع مركب الماء مثلا فإنه يأخذ منه مقدارا كافيا لإجراء عملية التحليل. فالمقدار الكافي بوصفه عينة من الحضارة هو ما نسميه المنتج الحضاري، فأى شيء ينتجه المجتمع هو منتج حضارة سواء أنتجه بوسائل الإنتاج العادية أم أنتجه بالتفكير البحث، فكل مفهوم من عالم المفاهيم وكل شيء من عالم الأشياء، وكل شخص من عالم الأشخاص باعتباره معادلة شخصية أنتجتها ظروف التاريخ وشروط التطور، كل عينة بين هذه العينات هي منتج حضارة...تكون من حيث تركيبها الاجتماعي نوعا واحدا، هو نوع منتجات الحضارية".⁹⁶

وعناصر هذه الحضارة قد صاغها مالك بن نبي في أحد المعادلات الأساسية وهي مفادها:

"وقت + تراب + إنسان = منتج حضاري. ويجب أن أكتب هذه المعادلة لكل منتج من منتجات الحضارة من الإبرة إلى ما بعدها، وإلى ما بعد الصاروخ، حتى أكون جدولا كاملا من المعادلات، الواحدة تحت الأخرى في هذا الترتيب مثلا:

⁹³ بن نبي مالك، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، مرجع سابق، ص: 42

⁹⁴ بن نبي مالك، ميلاد مجتمع، مرجع سابق، ص: 27

⁹⁵ بن نبي مالك، آفاق جزائرية، تر: الطيب شريف، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، د ط، 1964، ص: 69

⁹⁶ بن نبي مالك، تأملات، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط: 2، 2002، ص: 198.199

منتوج حضاري أول = إنسان + تراب + وقت
 منتوج حضاري ثاني = إنسان + تراب + وقت
 إلخ=.....
 منتوج حضاري أخير = إنسان + تراب + وقت
 ...إلى هذه النتيجة الشاملة:

مجموع منتجات حضارية = مجموع إنسان + مجموع تراب + مجموع وقت.⁹⁷

جمع إنسان قصد به النوع البشري وليس بالفرد أو بالأفراد، أما جمع تراب هو نوع أو مادة وليست حصيلة جمع التراب الطبيعي، وأخير جمع وقت والذي اعتبره كنوع ضروري لأي فعل حضاري لصناعة منتجات حضارية وذلك تطبيقاً لهذه المعادلة.⁹⁸

خاتمة:

في الأخير نجد أن الباحث قد حاول في هذا البحث تبسيط فكر كلا من العالمين ابن خلدون ومالك بن نبي؛ وذلك بغية المعرفة أهم الأفكار والإسهامات التحليلية لأهم مشكلة التي طرحت لدى الباحث. فحاول معالجتها بقرأة سوسيولوجية ومعرفية لمؤلفاتهما. كما قد درس معنى العمران لكليهما واستخرج مفاهيم وأطروحات في دراسة الحضارة والمدينة.

فقد تم التطرق إلى مفهوم ونشأة الحضارة والمدينة، ودور الفكر في تشكيلها وتكونها. ومن أهم النقاط التي يراها الباحث أن تأخذ بعين الاعتبار ومنها: أن ابن خلدون كانت عاطفته متجهة نحو العصبية والبدو؛ أما بن نبي كانت عاطفته متجهة نحو المجتمع التاريخي وذلك نظراً لاختلاف ظروفهما النفسية والاجتماعية التي كانت سائدة في زمنهما، بإضافة إلى ذلك تم دراسة العمران من طرف ابن خلدون على بعدين (العمران البدوي والعمران الحضري)، أما بن نبي درسه من ناحية (المجتمع الطبيعي أو البدائي والمجتمع التاريخي/الحضري)؛ وكان كلاهما يشتركان في نقاط مثلاً تشبيهما لتطور الحضارة كنمو الانسان؛ كما قد أضاف بن نبي بعض نقاط أخرى وهو موضح فيما سبق.

⁹⁷ نفس المرجع، ص: 199

⁹⁸ بوبكر جيلالي، مرجع سابق، ص: 57.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- ابن خلدون عبد الرحمن، مقدمة، تحقيق: محمد رجب، دار ابن الجوزي للطبع والنشر، القاهرة، ط: 1، 2010.
- 2- أرسلان شكيب، تاريخ ابن خلدون "المسمى بكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر"، المطبعة الرحمانية، مصر، د ط، 1936.
- 3- أمزيان محمد، تلازم الموضوعية والمعيارية في الميثودولوجيا الاسلامية، كتاب جماعي، قضايا منهجية في العلوم الاسلامية والاجتماعية، سلسلة المنهجية الاسلامية 12، تحرير محمد نصر عارف، المعهد العالمي للفكر الانساني، ط: 1، 1996.
- 4- بدوي محمد، علم الاجتماع ومشكلات المجتمع، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، د ط، 1995.
- 5- برون فوزية، مالك بن نبي "عصره وحياته ونظريته في الحضارة"، دار الفكر، دمشق، ط: 1، 2010.
- 6- بن حمد العويسي عبد الله، مالك بن نبي "حياته وفكره"، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، ط: 1، 2012.
- 7- بن نبي مالك، آفاق جزائرية، تر: الطيب شريف، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، د ط، 1964.
- 8- بن نبي مالك، تأملات، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط: 2، 2002.
- 9- بن نبي مالك، تبسيط مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، تر: محمد عبد العظيم علي، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة، ط: 1، 1997.
- 10- بن نبي مالك، شروط النهضة، تر: عبد الصبور شاهين، وعمر كامل مسقاوي، دار الفكر، دمشق، د ط، 1986.
- 11- بن نبي مالك، مذكرات شاهد للقرن الطفل والطالب، تر: عمر المسقاوي، دار الفكر، دمشق، ط: 2، 1984.
- 12- بن نبي مالك، مشكلة الأفكار في العالم الاسلامي، تر: بسام بركة، أحمد شعبو، دار الفكر، دمشق، ط: 1، 1988.

- 13- بن نبي مالك، ميلاد مجتمع "شبكة العلاقات الاجتماعية"، تر: شاهين عبد الصبور، دار الفكر، الجزائر، ج: 1، ط: 3، 1986.
- 14- بوبكر جيلالي، البناء الحضاري عند مالك بن نبي، دار المعرفة، الجزائر، د ط، د س.
- 15- بوعزيز يحي، الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، ج: 2، دار البصائر، الجزائر، د ط، 2008.
- 16- حسن الساعاتي سامية، ابن خلدون مبدعا، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط: 1، 2006.
- 17- الخليفة المشيشي مولاي، مالك بن نبي "دراسة استقرائية مقارنة، دار النايا للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، ط: 1، 2012.
- 18- محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج: 2، ط: 1، 1982.
- 19- مغربي عبد الغني، الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون، تر: محمد شريف بن دالي حسين، ديوان مطبوعات الجامعة، الجزائر، د ط، 1988.